MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا

الإخوان المسلمون في سوريا

من السياسة إلى العنف!

وحدة دراسات الإسلام السياسي

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا.

ملخص الدراسة ومحاورها:

شكلت تجربة الطليعة المقاتلة الخارجة من رحم التيار الإخواني السوري، نقطة مفصلية وحاسمة في التاريخ السوري الحديث على أكثر من مستوى، من حيث إنها أول تجربة للإسلام الجهادي السوري في العصر الحديث، ومن حيث إنها شكلت انعطافاً حاداً في مسارات متعددة دفعة واحدة، مسار السلطة والمجتمع، مسار السلطة والمعارضة، مسار المعارضة فيما بينها، مسار الديمقراطية والدكتاتورية، مسار الإسلام السياسي بين السياسة والجهاد، لينعكس هذا كله في نهاية المطاف، ليس على المسار السوري (مجتمعياً وإخوانياً) فحسب، بل أيضاً على مسار الإسلام السياسي العربي برمته، من حيث أن قسماً من عناصر الجهادية السورية التي لعبت دورا بارزاً في الساحة السورية؛ انتقلت إلى ساحات أخرى، أو تركت تنظيرات «جهادية» تتعلق بتلك التجربة، فكانت محرّضاً ومحفزاً ومعلماً لآخرين في ساحات أخرى، إضافة إلى أن التجربة نفسها، تحولت إلى محرّض لتيارات الإسلام السياسي الجهادي، كتجربة عيانية يستدل بها. من خلال المحار التالية:

- **المقدمة**
- **السياق العام الذي ولدت به تجربة الطليعة المقاتلة والجذور المؤسسة**
- **معارك الدستور: الحداثة/ العلمانية بمواجهة الأصولية**
- **عنف السلطة البعثية المباشر ودوره في الاتجاه العنفي للإخوان**
- **الصراع على جماعة الإخوان المسلمين بعد وفاة السباعيّ!**
- **ولادة العنف داخل الجماعة في سوريا ودور الطليعة المقاتلة في ذلك!**
- **ثقافة الثأر ودورها في الجنوح نحو العنف**

المقدمة

رغم الأهمية القصوى الكامنة خلف دراسة هذه التجربة من حيث فهمها وتحليلها واستخلاص نتائجها، إلا أنها حظيت بالتعتيم وعدم الإضاءة، إلى درجة أننا نادراً ما نقرأ ما يشفي غليل طالب المعرفة لفهم الدور الذي أدته الطليعة المقاتلة حقا، بأسئلتها المتشعبة، بدءا من طبيعة عملياتها وكوادرها وحقيقية ما نسب لها، وليس انتهاء بمعرفة الصلة الحقيقية بينها وبين الإخوان، إذ انطلق جدل طويل وعقيم أحياناً، عمّا إذا كانت الطليعة المقاتلة هي الجناح العسكري للإخوان المسلمين حقاً؟ أم أنها فصيل مستقل نما في الحاضنة الإخوانية ثم انفصل عنها؟ أم أنّ ثمّة علاقة مصلحة حكمت الطرفين لا أكثر ولا أقل في لحظة مفصلية حساسة من التاريخ السوري؟ لنكون في نهاية المطاف أمام حقبة غامضة من التاريخ السوري الحديث، وهي حقبة لا يمكن فهم سوريا والتحولات العميقة التي آلت إليها، دون فهم كافة تفاصيلها وجذورها، خاصة وأننا نتحدث عن نقطة مفصلية استكانت بعدها سوريا كلها لاستبداد سياسي وعسكري ضروس، حيث تمكن الأسد الأب من تصحير المجتمع السوري وقتل المجتمعين المدني والأهلي وإلغاء السياسة كلياً من التداول العام، وهي مرحلة لم تزل تفاصيلها الغامضة ترهق اللحظة السورية حتى اليوم، دون أن ننسى أن الإسلام الجهادي السوري استعاد وجوده على الأرض السورية بعد عام ٢٠١١، فهل من علاقة بين «الجهادي الجديد» و«الجهادي القديم»؟ هل هو امتداد له؟ هل هو نتاج نفس الظروف التي أنتجت الأول؟ هي أسئلة لن يعالجها هذا المبحث الذي سيركز فقط على الطليعة المقاتلة، إنما نتركها هنا علها تحفّز الباحثين المهتمين بدراسة الإسلام الجهادي وتحولاته للبحث فيها.

وإذا كان قسم من الغموض المحيط بهذه التجربة، يعود إلى قلة الباحثين في هذا المجال، فإن القسم الأكبر يعود إلى سرية كوادر الحركة والواقع الصعب الذي عاشته بعد هزيمتها في حماة عام ١٩٨٢، وإلى علاقتها المضطربة بتيار الإخوان المسلمين السوريين الذي ساهم كثيراً ولعب دوراً بارزاً في التعتيم على حقيقة الطليعة المقاتلة، وبالتالي تلك المحطة من تاريخ سورية، في الوقت الذي لم تكن كوادر الطليعة قادرة على الإعلان عن نفسها والتحدث عن تجربتها، نظرا لسرية هذه التجربة وواقعها الصعب.

السياق العام الذي ولدت به تجربة الطليعة المقاتلة والجذور المؤسسة

الطليعة المقاتلة ليست جوهرا متعالياً أو ظاهرة خالدة أو طبيعة ثابتة تعكس جوهر الإسلام المتسم «بالعنف الأبدي» كما يحلو لبعض المستشرقين الحديث. على العكس من ذلك، هي كأي ظاهرة تاريخية تتشكل من جملة عوامل تكاثفت وتفاعلت في لحظة تاريخية ما؛ لتشكل هذه الظاهرة التي لا يمكن فهمها بعمق دون فهم جملة العوامل التي ساهمت في تشكيلها، والتي نحاول في درسنا هذا، تحديدها بمايلي:

معارك الدستور: الحداثة/ العلمانية بمواجهة الأصولية

منذ مرحلة نهايات الإمبراطورية العثمانية وتشكل الحكومة العربية الأولى والعلمانية الطابع في دمشق ومجيء الانتداب الفرنسي وإلغاء منصب الخلافة، وجد التيار الإسلامي المحافظ، الذي يشكل غالبية كبرى في المجتمع السوري في تلك الفترة، وجد نفسه في موقع دفاع أمام تيارات الحداثة التي بدأت تتدفق إلى الداخل السوري بفعل الإصلاحات العثمانية والطلائع التنويرية التي درست في الغرب؛ وثار قسم منها على العثمانيين من جهة وعلى بيئة العلماء الدينين من جهة أخرى، بكل ما يعني ذلك من تغيير خريطة المصالح الاقتصادية لبيئة العلماء التي ارتبط مصدر دخلها بالمؤسسات الدينية التي كانت تديرها (الوقف، الجوامع...) بشكل مباشر، وبالسلطة الرمزية التي تحوز عليها وتشكل رأسمالا يساعدها بشكل غير مباشر في الاقتصاد أيضاً، لتجد هذه الفئات نفسها في موقع تهديد من الطلائع الحاملة لواء التنوير، والتي كان قسم منها من داخل بيئة العلماء الدينيين أنفسهم، والذين كانت الجمعيات والمؤسسات الدينية التي بدأت تتشكل في تلك الفترة معبّرا عنهم وعن مقاومتهم لما يجري، لاستعادة مواقعهم القديمة والحفاظ على «تقاليد الأمة ودينها»، والتي بدأت تنشط بشكل مكثف في المجال الدعوي والاجتماعي والتعليم بشكل خاص، دون أن تلعب أي دور سياسي إلا بشكل

ملحوظ، لكنها ساهمت في تعبئة المناخ الشعبي والحفاظ على قسم منه، كما سنرى لاحقاً من خلال الصدامات التي عرفها التاريخ السوري الحديث بين أنصار هذين التيارين، والتي اختبأ قسم كبير منها تحت يافطة محاربة الاستعمار الفرنسي «النصراني» من وجهة نظرهم.

هذا الصدام عبّر عن نفسه عبر عدة محطات في التاريخ السوري الحديث من خلال ما نطلق عليه معارك العلمانية والدستور السوري، إذ يقول لنا التاريخ أن كل كتابة للدستور أو تبديل له، ترافقت دائما مع معركة انتقلت من أروقة البرلمان والنخب المعنية إلى الشارع والتي تمحورت بكليتها عموما حول نقطة محددة، هي علاقة الإسلام مع الدولة، حيث كان يصر التيار الإسلاموي دوماً، على أن يكون «دين الدولة الإسلام»، وهي المادة التي أثير حولها الكثير من المعارك السياسية وفي الشارع أيضاً، والتي كانت تنتهي بتوافقات من نوع «دين رئيس الدولة الإسلام» و»الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع».

وهذه المعارك ليست متعلقة برد فعل على سلطة البعث فحسب كما يذكر العديد ممن يتعرض لهذه الحقبة والمسألة بالدراسة، بل هي تعود إلى زمن الانتداب الفرنسي الذي حاول وضع قوانين عصرية للبلاد، فتمت معارضتها من قبل طيف العلماء أو التيار المحافظ، حيث يخبرنا الزعيم السوري أكرم الحوراني في مذكراته أنه في ١٩ أيار/مايو عام ١٩٣٩ طالب طلاب كلية الحقوق بمنع إلغاء التقاضي بمجلة الأحكام العدلية كما حصل في لبنان ورفعوا تقريرا إلى رئيس الوزراء وأعضاء اللجنة العدلية محذرين من إلغاء المجلة وضرورة مراعاة أحكام الشرع الإسلامي.

ثم في أيار ١٩٤٤ حصلت أول معركة مباشرة في الشارع بين التيارين حين احتجت الجمعيات الإسلامية ضد اشتراك نساء في الحفل الذي نظمته «جمعية نقطة الحليب» التي تشرف عليها نساء من الطبقة الراقية، وذلك في مظاهرات استمرت عدة أيام توقفت خلالها حركة المدينة. ثم لاحقاً، عبر الأمر عن نفسه بوضوح حين كتابة دستور ١٩٥١ الشهير في سورية الذي لعب المراقب العام للإخوان السوريين مصطفى السباعي دوراً بارزاً في صياغته وإيجاد حلول للمسائل المختلف بشأنها حول مسألة موقع الدين من الدولة، ليتم التوافق على أن يكون «دين رئيس الجمهورية الإسلام» و»الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع» و»حرية الاعتقاد مصونة والدولة تحترم جميع الأديان السماوية وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها على ألا يخل ذلك بالنظام العام» و»الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية».

عادت المعركة وتجددت عام ١٩٦٤ في أحداث جامع السلطان (في هذا العام لم تكن أحداث جامع السلطان في حماة متعلقة بالدستور وإنما في مسألة صراع مكشوف أكثر بين التيار الإسلامي وحزب البعث حول موقع الإسلام في الحكم والدولة) ثم دستور السبعينات، الذي حاول حافظ الأسد أن يسحب عبارة «دين رئيس الجمهورية الإسلام» لتثور الاحتجاجات في الشارع مجددا، بما يوضح لنا أن السجال العلماني/ الإسلامي الذي عكسته معارك الدستور وغيرها والذي انتقل إلى الشارع أكثر من مرة طالما كان حاضرا في التاريخ السوري، ليشكل في نهاية المطاف أحد الروافد الفكرية والسياسية والحركية التي ساهمت ولو بشكل غير مباشر في ذهاب التيار الإسلامي نحو التجذر في العنف، بفعل الضخ والشحن الذي شكلته هذه المعارك في مخيال الإسلاميين من جهة، وعنف السلطة الوحشي أيضا.

عنف السلطة البعثية المباشر

لا شك أننا لا يمكن قراءة التحول إلى الجهادية دون قراءتها على ضوء الاستبداد المتصاعد من قبل السلطة والحاكمين في البلاد، وهو استبداد بدأ يرخي بثقله منذ انقلاب حسني الزعيم الأول حتى الوحدة السورية المصرية ومجيء حزب البعث الذي دخل منذ وصوله السلطة في معركة مفتوحة مع التيار الإسلامي، والتي كانت أول بوادرها في معركة جامع السلطان في حماة حين تم اقتحام الجامع واعتقال المحرضين على الاحتجاج وعلى رأسهم مروان حديد (مؤسس الطليعة المقاتلة لجند الله، كما كان اسمها أولاً)، حيث حكم على حديد بالإعدام ليتم التراجع عنه بضغط من شيوخ المدينة وعلى رأسهم الشيخ محمد الحامد الذي كان أول من أسس جمعية باسم الإخوان المسلمين في سورية ثلاثينات القرن الماضي متأثرا بصديقه حسن البنا، ليعود الصدام بين البعث والإخوان والتيار الإسلامي

يتجدد عام ١٩٧٣ مع الدستور الذي حاول حافظ الأسد فرضه، حيث لعب كل من مروان حديد وسعيد حوى من حماة (وهما من الإخوان) وحسن حبنكة من دمشق وهو من علماء دمشق المقربين من الإخوان دوراً بارزاً في تصعيد الاحتجاجات ضد الدستور حيث تنازل الأسد تحت ضغوطهم وأعاد عبارة «دين رئيس الجمهورية الإسلام» رافضاً إعادة عبارة أن «دين الدولة هو الإسلام»، لتثار معركة جديدة تحت عنوان مدى إسلام الرئيس الذي ينتمي للطائفة العلوية، لنخرج من مسار إلى مسار مختلف تماماً عن المناخ الذي أسسه مصطفى السباعي حين وجد حلاً براغماتياً في الدستور، وليتم بعدها اعتقال سعيد حوى وهروب مروان حديد إلى دمشق بعد إقناعه أن المواجهة غير ممكنة اليوم ومن ثم اعتقاله بعد عامين ومقتله في السجن، وتبدأ من حينها معركة كسر عظم بين التيارين، لعب استبداد السلطة دوراً بارزاً في تهيئة الأرضية اللازمة للعنف، خاصة بعد سعي النظام إلى بعثنة الدولة وتطييف الأمن وتعميم القمع والعنف، إضافة إلى انتشار الفساد وتراجع الاقتصاد وتدنى مستوى المعيشة.

الصراع على جماعة الإخوان المسلمين بعد وفاة السباعي!

منذ وفاة مصطفى السباعي، بدأ يتشكل داخل الإخوان نوع من المنافسة على الزعامة بين مدن حماه وحلب ودمشق، وهو التنافس الذي تعزز أيضاً بفعل المواقف من قضايا متعددة، كان أهمها الموقف من العنف لاحقاً. كان أول انقسام عام ١٩٦٩ بين عصام العطار الدمشقي وعبد الفتاح أبو غدة الحلبي، لينقسم الإخوان إلى تيارين في حين كان موقف تيار حماة كما يشير حينها سعيد حوى في مذكراته على الحياد، لينقسم الإخوان إلى ثلاثة تيارات، قسم مع العطار وقسم مع أبو غدة وقسم محايد يطالب بقيادة موحدة.

هنا بالذات، تشكل الفراغ داخل الإخوان من خلال وجود عناصر هي من صلب الإخوان ولكن لا مرجعية سياسية تعتمد عليها، وهنا بدأ سعيد حوى يكتب سلسلة كتبه تحت عنوان جند الله، وهي التي سيتأثر بها بشكل مباشر مروان حديد وسيحولها إلى تنظيم مسلح، وهنا لنا أن نعرف أن الاسم الأول للطليعة المقاتلة حمل اسم «الطليعة المقاتلة لجند الله»، حيث نرى أن اسم «الطليعة» مستمد من كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» وعبارة «جند الله» مستمدة من كتب سعيد حوى، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً بشكل مفصل في فقرة المؤثرات الفكرية والإيديولوجية للطليعة المقاتلة.

ولكن المهم هنا أن الانقسام الذي استمر حتى عام ١٩٨٠ شكل الأرضية التي نشأت عليها الطليعة المقاتلة داخل الإخوان، حيث بدأت تولد تيارات جديدة إخوانية لا مرجعية لها، آخذة من الإخوان أرضيتها ومن التنظير الجهادي (حوى، قطب) عقلها ومن عنف السلطة محفّزا لها.

وهنا بدأت تظهر داخل الإخوان مسألة العنف التي عادت وشكلت مسألة استقطاب جديد وعدم اتفاق جديد داخل الطيف الإخواني، وهو ما سمح للكوادر المتحمسة للسلاح والعنف بالذهاب نحو تشكيل أول كوادرها داخل الإخوان، ودون رضى القيادات أو برضى بعضها ومعارضة بعضها وصمت بعضها، وهو ما جعل مروان حديد يطلق على اسم تنظيمه أولا «اسم الطليعة المقاتلة لجند الله» لعدم إحراج الإخوان ولكيلا يحسب التنظيم على الإخوان.

ولادة العنف داخل الجماعة في سوريا ودور الطليعة المقاتلة في ذلك!

ثمة نقطتان هامتان من وجهة نظرنا، ومن الجدير ذكرهما، لأنهما من الأمور التي شكلت أحد العوامل غير المباشرة في تسهيل ولادة الطليعة المقاتلة، وبدء التيار العنفي في جماعة الإخوان وهما:

أولاً: الساحة السورية لم تكن يوماً خالية من السلاح والفصائل المسلحة، حيث كان لكل حزب سياسي في تلك الفترة فصيله المسلح الذي يتدرب على السلاح أو يمكن القول أن لكل حزب ميليشيا صغيرة تأتمر بأمره، حيث كان للكتلة الوطنية «القمصان الحديدية» وللإخوان «الفتوة» وللبعث «الصاعقة». كما أن قسم من هذه الكوادر هذه شارك في جيش الإنقاذ لتحرير فلسطين الذي أسسه القاوقجي من جهة، وفي عمليات المقاومة الفلسطينية ومخيماتها بعد تأسيس فتح.

ثانياً: منذ انقلاب حسني الزعيم، بدأت، وبالتدريج، تدخل الإيديولوجيا الانقلابية الثورية لتحل مكان الإيديولوجيا الديمقراطية، أي أن كل التيارات السياسية التي تؤمن بالشرعية الديمقراطية بدأت تتراجع

لصالح الأحزاب الراديكالية الثورية الصاعدة، وبدأ بعضها ضمن هذا السياق يتحول من الشرعية الدستورية إلى الشرعية الثورية، مؤمناً بالانقلاب العسكري طريقاً للوصول إلى السلطة، وحين نقول انقلاب، فهذا يعني سلاح وعسكر وجيش، وهو ما يؤكده نبيل شويري في كتاب «سورية وحطام المراكب المبعثرة»، حين يقول أن ميشيل عفلق بدأ يقتنع بفكرة الانقلاب بعد أن كان رافضاً لها، وهو ما انتقل عملياً بدوره إلى الإخوان الذي انكشف، لاحقاً، تنظيمهم العسكري الذي كان يعد لانقلاب داخل الجيش نهاية وبداية ثمانيات القرن الماضي.

ثقافة الثأر ودورها في الجنوح نحو العنف

رد فعل الإخوان الباهت على قمع السلطة التي بدأت تطال كوادرهم وتعتقلهم وتعذبهم، وخاصة بعد مقتل مروان حديد، شكل أحد العوامل التي دفعت هذه الكوادر للانتقام والتفكير بالسلاح متمردة على رأي قياداتها، بل باتت الطليعة بعد تشكلها ملجأ للإخوان الهاربين والمطلوبين من نظام الأسد، كما أنها بدأت تستقطب الكوادر المتمردة من داخل الإخوان، وهو ما انتبه له الإخوان؛ وحاولوا تلافيه حين حاولوا استيعاب الجماعة والانخراط في العمل المسلح، ليخربوا أكثر مما بنوا، وهذا أمر يذكره بوضوح أيمن الشربجي والذي كان القائد العام للطليعة منذ عام ١٩٨٢ وحتى عام ١٩٨٨، وذلك في كتابه «على ثرى دمشق».

في دراستنا للجذور الفكرية للعنف عند الإخوان؛ لا بد من التوقف عند مسألة مهمة، فمن المعروف أن الرجلين المؤسسين للطليعة المقاتلة هما مروان حديد وسعيد حوى، والملاحظ هنا أنّ الاثنين درسا في مصر واقتربا من الإخوان هناك، وأن الاثنين كانا مقربين جداً من الشيخ محمد الحامد الذي كان صديقاً لحسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ومؤسس أول جماعة حملت اسم الإخوان المسلمين في سورية، والتي كانت إحدى الجماعات التي تأسس منها تنظيم الإخوان بقيادة السباعي، ما يعني عملياً أن الجذور الفكرية للطليعة المقاتلة تعود إلى فكر الإخوان بشكل عام، وتحديداً فكر سيد قطب الذي لم يكن منظر الجماعات الجهادية المقاتلة بقدر ما كان مدخل أو حلقة ضرورية شجعت على تفسير المقدس وتجييره لمواجهة السلطات المستبدة، وهو المدخل الذي تمفصل مع أفكار المودودي في شعاره المعروف باسم الحاكمية، إضافة إلى أن مفردة الطليعة أو الطلائع وردت في كتاب سيد قصب «معالم في الطريق».

وهنا إذا عرفنا أن حديد وحوى كانا مقربين جداً، وأن من بين مؤلفات حوى «جند الله ثقافة وأخلاقاً» و «جند الله تخطيطاً» و«جند الله تنظيما» و«من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك»، وإذا عرفنا تالياً أن الاسم الأول للطليعة حمل اسم «الطليعة المقاتلة لجند الله» عام ١٩٧٠ والذي أصبح اسم «الطليعة المقاتلة للإخوان» عام ١٩٧٩ على يد القائد الثاني للجماعة عبد الستار الزعيم، فسندرك حينها الجذور الفكرية التي ترعرع وتربى عليها فيها الجيل الأول للطليعة المقاتلة التي تأسست عمليا ١٩٧٠ وانتهت عام ١٩٧٩، وهو الأمر الذي سيكون محور دراسة خاصة تركز على التأسيس والعمليات التي شنتها، وعلاقتها مع الإخوان ومن ثم نهايتها وانتقال كوادرها إلى جهات أخرى.

المراجع:

(١): أيمن شربجي، على ثرى دمشق، أفق للدراسات والنشر، لندن.

(٢): سعيد حوى، هذه تجربتي وهذه شهادتي، مكتبة وهبة.

(٣): عمر عبد الحكيم، الثورة الإسلامية الجهادية في سورية، نسخة PDF متوفرة على النت.

(٤): عزيزة جلود، صفحات من تاريخ الطليعة، أكاديمية العلم والسلم/ ألمانيا.

(٥): رضوان زيادة، الإسلام السياسي في سورية، مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

(٦): نبيل شويري، «سورية وحطام المراكب المبعثرة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٧): مذكرات أكرم الحوراني، مكتبة مدبولي.

MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا